الارتقاء والتطور ضرورة حياتية

الأحد 15 فبراير 2015 12:02 م

الارتقاء والتطور ضرورة حياتية

الإنسان في رحلته الدنيويـة يواجه في كلِّ تجربـة من حياته فرصـة للتغيير، فإمَّا أن يغتنمها إيجابياً، أو تفوته الفرصة، وأيّما فرصة مضت، فلن تعود إلى الأبد.
فهو بذلك إمَّا أن يخطو خطوة للأمام، وإمَّا أن يظل مكانه دون حراك، وقد عبَّر القرآن الكريم عن هذه الحقيقة التي لا مفرَّ منها، في قوله تعالى :{ نذيرا للبشر، لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر}. [المدثر، 36، 37].

فالحياة إمَّا تقدَّم أو تأخر، إمَّا ارتقاء في سـماء المجد، أو إخلاد إلى حضيض التيه، إمَّا قرب من الله، أو بعد عنه، لا تخلو لحظة من كونها فرصة للتقدَّم، أو نقيض ذلك.

والثبات على ما تمَّ الوصول إليه في شتى مناحي الحياة، يكون تقـدما عندما يكون محافظة على إنجاز قد تمَّ تحصـيله، ودفاعاً عن خطر داهم يحاول هـدمه، فالوقوف أمام هـذه الأحوال العارضة على الإنجاز الأصـلي تقدّم وترق، وإن كان ذلـك كله في ظـاهره لغير المتأمل، ثباتاً وسـكوناً، { ولولا أن ثبتناك، لقـد كـدت تركن إليهم شـيئا قليلا} [الإسراء، 74]، فرسول الله صـلَّى الله عليه وسـلّم، وهو بين ظـاهرني كفـار قريش، كان يسـعى لـدعوتهم، وإدخال أكبر عـدد ممكن منهم في دين الله، وهو في حين من الأوقـات لم يتمكن من ذلك، لأنَّه بـدأ يواجه ظروفاً وضـغوطاً تريـد ثنيه وردّه عن أصل الأمر، فلمَّا أن ثبته الله جلَّ وعلا على الـدَّعوة في مواجهـة كل تلك الظروف، كان ذلك فتحاً ونصـراً، وبلسان هذا الحديث: تقدّماً.

قد يكون الثبات والسكون علامة التأخر والتراجع، وهذا عندما يكون السكون في مقابل الانتقال إلى مرحلة أفضل، مع توافر الأسباب والدواعي لذلك، فيكون تفويتاً لفرصة

ومع ذلك قد يكون الثبات والسـكون علامة التأخر والتراجع، وهذا عندما يكون السـكون في مقابل الانتقال إلى مرحلة أفضل، مع توافر الأسـباب والـدواعي لـذلك، فيكون تفويتاً لفرصة، ومن الأمثلة على ذلك، أنك لو تابعت أخبار رياضـيٍّ ما، وكان يحصل المركز الثاني ، واسـتمر على هـذا النحو مسابقات عـدَّة، سـيعد ذلك تراجعاً، لأنَّه لم يسـتطع أن يقدّم نجاحاً جديداً، واكتفى بسابق ما أنجز.

والقرآن الكريم بعـد أن نبَّه إلى هذا الأمر، وأرشد أذهاننا ونظرنا إليه، رسم لنا معالم التقدّم، وحضـنا عليه، ودلنا على كنهه في الأمور كلِّها، وأرشـدنا جلَّ في علاه عبر آيات كثيرة إلى ضـرورة الانتباه إلى هـذا المنهج، وجاءت سـنة النبي صلّى الله عليه وسلّم أروع مثال على الارتقاء والصعود في سلّم الخيرية.

قولنـا الارتقـاء منهـج، يعني الانتقـال الـدائم من وضع إلى وضع أفضل، فالانتقال من السـيّئ إلى الأقل سوءاً تقـدّم، والانتقـال من الجيّـد إلى الأكثر جودة تقـدم، والانتقال من السوء الكثير إلى السوء القليل تقـدم، والانتقال من الجيد القليل إلى الجيـد الكثير تقـدم، ألا ترى أنَّ المنظمات العالميـة اليوم، تعـدّ أيَّ نقص في عـدد فقراء دولة ما تقدماً في وضـعها الاقتصادي والاجتماعي، وانخفاض نسـبة الرسوب في مرحلة دراسـية ما، علامة على تحسن الأداء التدريسـي لهذه المؤسسة.

ومن المعالم الواضـحة في رسم هذا المنهج، قوله تعالى: { إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصـفه وثلثه} [المزمل، 20]. فهنـا يضع الله أمام أعيننا مراتب لعبادة من العبادات، ليعلمنا أنَّ الطريق إليه ليست في مرتبـة واحـدة، والقرب منه معياري نسبي، يراعى فيه ما يحيط الإنسان من ظروف شتى، وقـد رتبها الله عزَّ وجل في هـذه الآية من الأـعلى للأدنى، في إشارة إلى دفعنا إلى تحصـيل الأعلى في أدائنا لهـذه العبادة الجليلـة، وإنَّك إذا ما اطلعت على أي تقييم لهيئـة تعليميـة أو غير ذلك، سـتجد الـدّرجات مرتبة من أعلى لأدنى، فمثلا: امتياز، ممتاز، جيّد جداً، جيّد .. وهكذا، فالمؤمن يسـعى دائماً إلى الرقي في عبادته، وفق المنهج الذي وضـعه الله له، فلا يقنع بمرتبة، ولا يرضى بمنزلة، بل يظل في حالة من الحركة الدائمة الدائبة التي تنقله من مستوى أدنى لمستوى أعلى.

ولهـذا المنهـج انعكاسـاته على شتى نواحي الحيـاة، فالإنسـان في عبـادته كما في مثال صـلاة قيام الليل، ينتقل من مرتبة إلى مرتبة، وهنا محذورات مهمَّة، منها:

1. أن لا يكلّف نفسه فوق طاقتها، فينطلق إلى أعلى المراتب وقـد كان في أدناها، لأنَّ هـذا تضـييع للجهـد، وتفويت للمقصد.

2. أن لاـ يقنـع بمرتبـة وصـل إليهـا، فمن أكرمه الله بقراءة جزء من القرآن، عليه أن يسـعى لأـن يكون ورده جزأين، وهكذا في سائر العبادات.

3. أن يسير وفق خطة واضحة في الارتقاء والانتقال، فلا يضيع جهده، وهو يتردد ويتقلب دون نظرة واضحة.

4. أن لا ينتقل من مرتبـة أعلى وصل إليها إلى مرتبـة أدنى مهما واجه من ظروف، إذ في ذلك بدايـة الانتكاس، وأول عوامـل الهـدم، والخطوة الأـولى نهو الانهيـار، بـل يصبر نفسه على مـا أنجز، ويحافظ على ذلك ما اسـتطاع إلى ذلك سبيلاً، وكما أسلفنا القول، فالمحافظة على الإنجاز أحيانا تعدُّ إنجازاً.

وينعكس هـذا المنهـج أيضاً على بناء الإنسان لشخصـيته وتربيته لها، فهو لا يحال نفسه الأمس لليوم، ولا يحال نفسـه اليوم للغد، بل يظل يراقب نفسه في حبّها لله ورسوله صـلّى الله عليه وسـلّم، وحرصـها على دين الله تعالى، وحسن تعاملهـا مع النـاس، وانتقائهـا أطـايب الكلام، وابتعادها عن سـفاسف الأمور، وما كان مقبولاً في مرحلـة سابقـة من تصـرّفات وأقوال ونوايـا، لاـ يصـلح في مرحلـة لاحقـة، ونضـرب لـذلك مثالاـً، بأن يكون الشاب المسـلم وهو في سـن المراهقـة يعمـد إلى ألعـاب الحـاسب الآلي لهـدف الترويـح عن النفس، فإنَّ هـذا الأسـلوب وإن كان مقبولاً من شاب مراهق، فهو مـذموم من شاب جامعي، بل يروّح عن نفسه بقراءة قصـص الصَّالحين أو ما شابه، ممَّا لا يحتاج إلى كثير تركيز، وفيه الفائدة والمتعة.

ومن التطبيقات الواضـحة لهـذا المبدأ في حياة المسـلم، دعوته لإخوانه، فهو يحملهم من حال إلى حال، ويدلهم على الأفضـل والأـحسن، فلا يكون خطابه للجميع واحـداً، بل ينتقي لهم ما يناسب أحوالهم، فمن كان يشـغل نفسه بتوافه الأمور والمهمَّات، ينبّهه إلى أقلّها أهميـة وفائـدة، وهكـذا، ومثال ذلك في سـيّئات الأمور، أنَّ الـداعي إذا أراد أن يدعو مـدخناً لترك التـدخين، فإنَّه يدعوه إلى التخفيف منه، تمهيداً لتركه، ومثال ذلك في حسـنات الأمور، أنَّ الدَّاعي إذا أراد أن يثقف أخاً له في الله، فإنَّه ينتقل به من طور الوعظ وقصص الصَّالحين، إلى طور العلم ومسائل العقيدة والفقه.

وهـذا المنهـج عام في المؤسـسات والهيئات أدناها منزلة، وأعظمها مهمَّة، فلا ينبغي لمدير في شـركة، أو لأمين في حزب، أو لمسؤول في حكومـة، أو لرئيس في دولـة، أن يقنع بمرتبـة وصل إليها، بل لا بـد من الانتقال من مرحلة إلى أخرى، في ارتقاء دائم، فدولة عجزه السـنوي النصف، تسـعى لأن يكون عجزها السنوي الربع، وهكذا، حتى تتمكن من سدِّ عجزها، وتحصيل فائض عليه، أمَّا إذا رضيت بما هي عليه، فإنَّها تخطط لانهيارها، وضياع قوتها، واندثار أركانها.

{لمن شاء منكم أن يتقـدَّم أو يتأخر} منهـج واضح في القرآن الكريم، لا تنفك الحاجة إليه لمسـلم أو داعية أو ذي شأن في المجتمع، في حركتنا المستمرة التي لا تتوقف في الحياة.